

(١)

### التضحية من أجل الأوطان

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ} ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين ، **وبعد :**

فلقد خلق الله (عز وجل) الإنسان وفطره على حب الوطن والانتماء إليه ، والتضحية من أجله ، والشهادة في سبيله ، فمحنة الوطن فطرة فطر الله الناس عليها على اختلاف أعراقهم ومشاربهم ، وعندما جاء الإسلام بشريعته السمحة جعل حب الوطن سبيلاً للعمل الصالح وفعل الخيرات.

وقد اقترن حب الوطن في القرآن الكريم بحب النفس ، قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ} ، ومن ثم فليس بغريب أن يُحب الإنسان وطنه ويحن إليه ، فقد نشأ على ثراه ، وشبَّ على أرضه ، وترعرع بين جنباته ، وما ذلك إلا دليلٌ على قوة الارتباط وصدق الانتماء.

وخير دليلٍ على ذلك : ما أعلنه نبينا (صلى الله عليه وسلم) عن حبه لوطنه ، ومدى وفائه وتعلقه الكبير ببلده مكة ، وهو يغادرها مهاجراً إلى المدينة ، حيث قال: (مَا أَطْيَبُكَ مِنْ بَلَدَةٍ وَأَحَبُّكَ إِلَيَّ ، وَلَوْ لَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكَ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكَ) ، وفي رواية أخرى : (وَلَوْ لَا أَنَّ أَهْلَكَ أَخْرَجُونِي مِنْكَ مَا خَرَجْتُ).

وحين انتقل (صلى الله عليه وسلم) مهاجراً بأمر ربه إلى المدينة سأل الله تعالى أن يُحببها إليه وأن ينعم فيها بالراحة والسكينة ، والأمن والطمأنينة ، فقال

(٢)

(صلى الله عليه وسلم): (اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ)، هكذا ضرب نبينا (صلى الله عليه وسلم) أروع الأمثلة في حبه لوطنه.

على أن حب الوطن لا يتوقف عند مجرد المشاعر والعواطف فحسب ، بل يجب أن يترجم إلى عمل وسلوك صالح نافع للفرد والمجتمع ، ومن ثم فلا بد من التضحية لأجل بقائه قوياً عزيزاً ، فالانتماء للوطن يوجب على أبنائه أن يعتزوا به ، وأن يتكاتفوا جميعاً للحفاظ عليه ، وأن يسهموا بقوة في نهضته بالعلم والعمل والإنتاج ، على أن للتضحية من أجل الأوطان صوراً متعددة ، منها :

**التضحية بالنفس**، وهي أعلى صور التضحية من أجل المحافظة على الأوطان ، فحراسة الأوطان والدفاع عنها واجب شرعي وضرورة وطنية عدّها الشرع من أفضل الأعمال عند الله (عز وجل) ، وقد بشر النبي (صلى الله عليه وسلم) حُرَّاسِ الوطن الذين يضحون بأنفسهم دفاعاً عن وطنهم ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ ، عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) ، والعين هنا مراد بها الجسد كله ، غير أنه (صلى الله عليه وسلم) عبّر بالعين كونها تحرس وتراقب ، فعبر بالبعض وأراد الكل .

وأعلى درجات التضحية بالنفس أن ينال الإنسان الشهادة التي تعني بذل النفس والمال نصرة لدين الله (عز وجل) ، ودفاعاً عن الوطن والأرض والعرض والمال ، فالشهادة في سبيل الوطن منزلة تجعل صاحبها في صحبة الأنبياء والصديقين ، قال تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} ، فالشهداء مصطفىون باصطفاء الله تعالى لهم ، حيث قال سبحانه: {وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا

(٣)

وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ} ، وهم أرفع الناس درجة بعد الأنبياء والصديقين ، وهم في ذاكرة الأمة مخلدون وعند ربهم أحياء يرزقون ، قال تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} .

وقد بشر النبي (صلى الله عليه وسلم) كل من ضحى بنفسه دفاعاً عن وطنه فنال الشهادة في سبيل الله (عز وجل) ببشارات متعددة تؤكد على فضل الشهادة في سبيل الله وترغب فيها ، وتبين مكانة الشهداء عند الله (عز وجل) ، منها : قوله (صلى الله عليه وسلم) : ( لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ : يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَرْعِ الْأَكْبَرِ ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ ، الْيَأْقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ) .

ومنها : تميز الشهداء يوم القيامة بهيئة خاصة وبريح طيبة تنبعث من أجسادهم تتناول لها الأعناق وتنحني لها الهامات إجلالاً واحتراماً ، يقول (صلى الله عليه وسلم) : ( وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُكَلِّمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِهِ - إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّوْنُ لَوْنُ الدِّمِّ وَالرِّيحُ رِيحُ الْمِسْكِ) .

وكذلك رأينا الشهيد وحده من أهل الجنة هو من يتمنى أن يرجع إلى الدنيا لينال شرف القتل في سبيل الله عدة مرات ، يقول : (صلى الله عليه وسلم) : ( مَا مِنْ أَحَدٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا وَأَنْ لَهُ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ غَيْرِ الشَّهِيدِ فَإِنَّهُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ لِمَا يَرَى مِنَ الْكِرَامَةِ) .

ولأجل هذه المنزلة والكرامة رأينا الصحابة (رضوان الله تعالى عليهم) يتسابقون ويتنافسون في التضحية من أجل وطنهم لبلوغ هذه المنزلة ، فهذا سيدنا

(٤)

حنظلة غسيل الملائكة (رضي الله عنه) يضحي بنفسه ويخرج للجهاد صبيحة ليلة زفافه، ويسقط شهيداً في غزوة أحد، وكذلك عمرو بن الجموح (رضي الله عنه) كان أعرج إلا أنه أصرَّ على الخروج للجهاد في سبيل الله لما للشهادة من منزلة ومكانة عند الله (عز وجل)، ولم يقتصر الأمر في التضحية على الرجال فحسب، بل وجدنا السيدة أم عمارة نسيبة بنت كعب (رضي الله عنها) تضحي بنفسها دفاعاً عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى كثرت الجروح في جسدها.

وجدير بالذكر أن هناك فرقاً بين التضحية بالنفس في سبيل الوطن وبين من يفجر نفسه لإيذاء الآخرين، فليس هناك شرع يبيح أو يجيز ذلك، ففي العمليات الانتحارية تتعدد الجرائم، فمن يفجر نفسه سواء أذى غيره أم لم يؤذ مُنتَجِرٌ يجعل نفسه إلي الهلاك، وقد نهى الحق سبحانه وتعالى عن قتل النفس، أو الاعتداء عليها بأي لون من الألوان، فقال سبحانه: {وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا}، فكيف به إذا تسبب في قتل غيره من النساء والأطفال والبرءاء من ذوي الدماء المعصومة، قال تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} حتى إن فجرَّ غيره عن بعد فهو قاتل ومفسد ومعتدٍ.

على أن هذه التفجيرات الإجرامية إذا استشرت ولم تواجه بيقظة وحزم من الجميع أكلت الأخضر واليابس وارتدت على أصحابها والمحرضين لهم، والصامتين عن جرائمهم، والمتردددين والخائفين، يقول سبحانه: {وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}.

**ومن صور التضحية: التضحية بالمال**، وهو أمر ليس بالسهل الميسور، بل هو

صعب على أكثر الناس؛ لتعلق القلوب بحب المال، لذا كان بذله نوعاً من التضحية

(٥)

والعطاء ، قال تعالى : { وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } ، وقد جعل الله سبحانه التضحية بالمال في أوجه الخير قرضاً حسناً ، قال تعالى : { مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } .

وقد ضرب الصحابة (رضوان الله تعالى عليهم) أروع الأمثلة في التضحية والفداء ، فكانوا يُضحون بكل غالٍ ونفيس من أجل الحفاظ على وطنهم ، فهذا أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) يضحى بماله في سبيل تجهيز جيش المسلمين ، وكذلك ضحى سيدنا عثمان بن عفان (رضي الله عنه) بماله لتجهيز جيش العسرة ، وشراء بئر رومة ، حين قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : ( مَنْ جَهَزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَلَهُ الْجَنَّةُ ) ، فجهزه عثمان (رضي الله عنه) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : ( مَنْ يَحْفِرْ بئرَ رُومَةَ فَلَهُ الْجَنَّةُ ) فحفرها عثمان ، وكذلك سيدنا عبد الرحمن بن عوف وغيرهم من الصحابة (رضي الله عنهم) ضحوا من أجل دينهم وحبهم لوطنهم .

**أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم**

\* \* \*

الحمد لله رب العالمين ، وصلاة وسلاماً على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

**إخوة الإسلام :**

إن مجالات التضحية من أجل الأوطان لا تنحصر في بذل النفس والمال فقط ، بل تشمل كل مجالات التضحية بالجهد أو بالفكر أو بالوقت ، يقول الحق سبحانه : { وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ } ، ويقول (عز وجل) : { وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ

اللَّهِ بِهِ عَلِيمٌ؛ لتشمل التضحية كل أنواع الخير ، فالمعلم يُضحى من أجل نشر العلم وبناء الأمة وصناعة القادة والعظماء ، وكذلك التضحية بالوقت والجهد؛ لقضاء حوائج الناس والصلح بينهم ، قال تعالى: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا}.

**ومن التضحية من أجل الوطن :** التعاون في العمل العام الذي يسهم في بناء الوطن ويرتقي بالمجتمع ، ونحن في هذه الأيام أمام قضية هامة هي قضية التعداد السكاني التي تسهم في تقدم المجتمع ، والتاريخ يؤكد أن الأنبياء والرسل كانوا يهتمون بالتعداد السكاني ، وعندما هاجر النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة المنورة طلب من أصحابه إجراء حصر بعدد المسلمين وذلك لتدبير شؤون الرعية وبخاصة أن عددهم لم يكن معروفًا لتعدد القبائل ووجود مهاجرين وأنصار ، وأما باقي قبائل المدينة من أهل الكتاب فكان عددهم معروفًا.

ومن ثم كان اهتمام الإسلام بقضية تعداد السكان ، فعَنْ حُدَيْفَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (أَحْصُوا لِي كَمَ يَلْفُظُ الْإِسْلَامَ) ، قَالَ: فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَخَافُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ مَا بَيْنَ السِّتِّمَائَةِ إِلَى السَّبْعِمِائَةِ؟ قَالَ: (إِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ لَعَلَّكُمْ أَنْ تُبْتَلُوا)، قَالَ: (فَابْتَلِينَا حَتَّى جَعَلَ الرَّجُلُ مِنَّا لَا يُصَلِّي إِلَّا سِرًّا). وفي رواية: (أَحْصُوا لِي كُلَّ مَنْ تَلَفَّظَ بِالْإِسْلَامِ) ، وفي رواية: (اكتُتِبُوا لِي مَنْ تَلَفَّظَ بِالْإِسْلَامِ مِنَ النَّاسِ ، فَكُتِبْنَا لَهُ أَلْفًا وَخَمْسِمِائَةً).

وقد سار الصحابة (رضوان الله عليهم) على هذا النهج في التعداد والحصص حتى سجلوا للتاريخ أعداد من شاركوا في الغزوات ، وأعداد من استشهدوا ، وكذا

(٧)

أعداد من تم أسره ، بل ذكروا لنا تعداد الخيول وآلات الحرب وغيرها.  
وإذا كان ولاة الأمر قد دعوا إلى التعداد السكاني لتدبير شؤون الرعية فإن  
ذلك يفرض علينا أن نكون عوناً لهم فيما دعوا إليه ، ففيه إحياء لسنة النبي الأمين ،  
وحلُّ لمشاكل الناس أجمعين.

على أن التعداد ليس قضية شكلية إنما هو أمر هام في توجيه ودعم اتخاذ  
القرار ، وبيان الخدمات القائمة واللازمة للمواطنين من المدارس والمستشفيات  
والخدمات العامة ، وخرائط الاستثمار ، وبيان المناطق الأكثر احتياجاً للتركيز عليها  
في برامج التكافل الاجتماعي ، بما يسهم في تحقيق التنمية البشرية المتكاملة  
وتنمية المناطق الأكثر احتياجاً ، مما يتطلب التعاون مع القائمين على أمر التعداد  
وتيسير عملهم.

وأخيراً نوكد أن المجتمع الذي يتخلق أفراده بالتضحية والمزيد من العمل  
والإنتاج هو مجتمع قادر على إنجاز أهدافه ، وتحقيق آماله وطموحاته ، والوصول  
إلى غاياته وتحقيق ازدهاره ، فتقوى شوكته ، فلا ينال منه الأعداء ، ولا يعرف  
العداوة ولا الشحنة ، ولا الحسد ولا البغضاء ، ويعمه التألف والتواد والتراحم.

فما أحوجنا إلى التحلي بقيمة التضحية من أجل الوطن ، لئرضي ربنا ،  
وليستعيد وطننا أمجاده ، وننتصر على أعدائنا ، فيسود الحق والعدل ، ويعمّ الخير  
والأمن.

اللهم آمنا في أوطاننا ، واحفظ مصرنا من الفتن ، ما ظهر منها وما بطن.